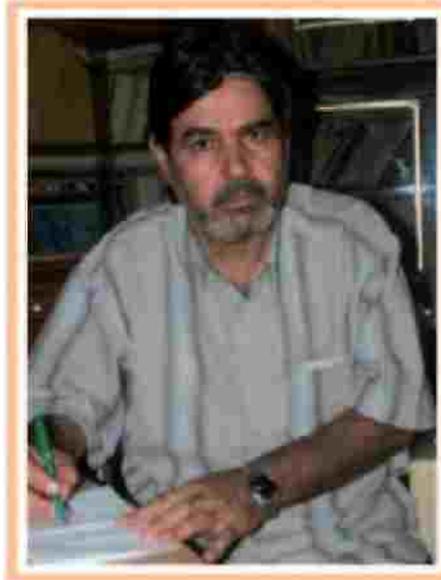


العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني

الأفكار وتوظيف الأدب لتحقيق مآربها. هيأت الصهيونية الأدبية هي الوجه الأحدث للصهيونية السياسية بحيث واكبتها من مرة إلى أخرى مطوفاً نفسها حسب كل مرحلة. ففي العشرينات كانت النظرة تجاه العرب تتمثل في: «العربي المسلم هو ذلك اليهودي المتوحش القاسي الذي يتاجر في العبيد، ومع بداية السبعينات تحول إلى يودي ثري غريب نهم للنساء، لتصل الصورة في الثسينات إلى الإرهابي الأصوني المتعصب الذي لا يصلي قبل أن يقدم على قتل الأبرياء وتفجيرهم، فهو شخص همجي أشعث الرأس، يتحدث بلكنة ثقيلة يشتهي أن يملك أموال العالم، يشبه الخنزير في كيفية ابتلاعه للطعام، ويقتل الأطفال بلا رحمة إذا لم يفتصّبهم، لذلك لا يحق له الأرض التي يعيش فيها. فهي أرض إسرائيل، هذه الأفكار المزروعة داخل وجدان الإسرائيليين تؤكد إلى أي مدى وصل التضليل الصهيوني الشيع. وأن معظم الأدب الإسرائيلي أدب عدواني، يمثله العديد من الكتاب الصهاينة، «أمون حيزر» مستوطن إسرائيلي في الضفة الفلسطينية يكتب للتلاميذ والطلبة الإسرائيليين محاولاً إعطائهم إحساساً عميقاً بالارتباط بالأرض بعد مئات السنين من الشتات وحياة «الجنوة» على حد قوله. في كتابه «مواضيع مركزية في تاريخ الشعب والنونة» وفي مستهل فصل بعنوان «نعلم كيف تجيب على السؤال بصدد حقوقنا على الأرض» يقول: «إن كل الأقوال بشأن الحقوق التاريخية التي يحفل بها النقاش بيننا وبين العرب تنقز إلى الحقيقة وناجمة على أي الأحوال لدينا عن قلة الفهم وقلة المعرفة والتراية بتاريخ الاستيطان اليهودي على أرض إسرائيل، إن أميتنا ولدت فرضيات كاذبة بينها تلك الفرضية القائلة أنه لدى عودتنا إلى البلاد، بعد هجرة دامت أفضى سنة، وجدنا البلاد مستوطنة من قبل شعب آخر، أقام هنا مئات السنين، وهذا غير صحيح لا من قريب ولا من بعيد، الحقيقة هي أننا عندما أتينا إلى هنا الآن لم يثنأكيد شعباً أقام مئات السنين».



د. خليل حسونة

كاتب وأديب فلسطيني

ومن هؤلاء «المجلس الأمريكي لليهودية الذي اتهم من قبل الحركة الصهيونية بالتمسك للدين اليهودي وخيانة أصولها ومحاربة العرب وتأييد قضايهم».

من هنا يمكن الافتراض بشيء كبير من الثقة «أن الصهيونية واليهودية فكرتان متداخلتان بعد أن عمدت الصهيونية إلى تزوير الشريعة الموسوية حتى يشئى لها استعمار فلسطين، وعلى أساس ما كتب هر نزل من «أن الغاية تبرر الوسيلة»، وهي القاعدة التي انحصرت فيها الأفكار الرئيسية للصهيونية كما صاغها كلاسيكوها هر نزل ويشكر ويورخوف وغيرهم والمتمثلة في:

- اليهود هم شعب الله المختار.
- اليهود هم شعب ذو مصير تاريخي وسمات خاصة لا تتصف بها الشعوب الأخرى.
- كل يهودي ينتمي إلى الأمة اليهودية ويجب على اليهود أن يطمحوا للعودة إلى موطنهم القديم فلسطيناً

على هذه الأسس استطاعت الصهيونية أدلجة

الظاهرة الأدبية الصهيونية لا تخرج عن كونها تطوير للفكر الصهيوني وتكتيكا لألية فعله، فالأيديولوجيا هي مجموعة من التصورات والأفكار المترابطة والمتلاحمة التي تؤدي معنى محدداً للعلاقات الاجتماعية، وما ألفصده بأداء المعنى هنا، هو أن المشتركين في هذه العلاقات يجدون أن تلك الأيديولوجيا طبيعية مقبولة صحيحة ومبررة ومشروعة، وهكذا فإن أصحاب أيديولوجية معينة يشاركون فيها ويمارسونها عقوباً دون أن يكونوا مكرهين على ذلك.

استطاعت الأيديولوجيا الصهيونية خلق جسم مترابط من الأفكار المنبثقة عن المعتقدات والأساطير والحوادث التاريخية حقيقية كانت أم مزيفة، لتخفي بذلك التناقض الصارخ القائم بين شكلها ومضمونها، وهي بذلك تقوم على «ديماغوجية اجتماعية بلا حياة وتؤثر على أناس مومنين غير ثابتين أيديولوجياً، وغير واعين سياسياً، وهي لأنها مبنية بشكل دقيق فادرة على التكيف حسب الظروف المختلفة، بحيث أصبح وعي ملايين الناس يهوداً وغير يهود عاجزاً عن التمييز بين الحقيقة والخيال» الليتافيزيقية بين ما هو صحيح وما هو مزيف تاريخياً وتودعي الصهيونية بأنها تمثل جميع يهود العالم وأنهم جميعاً أينما وجدوا يدينون بالولاء لها ويستجيبون لدعواتها دون تمييز، فهناك من يرفض إصباغ التفسيرات القومية لضيقه على ادبانية اليهودية وهيها الأخلاقية بمدلولها الإنساني.



والإحياءات الدينية المستمرة ومنها انطلق تصور مشترك كحل لمشكلتهم باللجوء إلى «الجنيتوك» فأدى ذلك بهم إلى العنصرية الشوفينية وبالتالي إلى توفيقهم أمام تيارات التغيير ونواميس التطور. وتمثل رواية «العشب الأحمر» يشتمل بيضاء، انهر الأخضر يتدفق للأبد» للكاتب الصهيوني العنصري بنحاس سادية نموذجاً رمزياً للكتابة الأدبية الصهيونية فيها يحاول الكاتب بث توحيد صويح في نفس هارثه بالأرض العربية عبر مقولة «الأرض التاريخية مستعداً رموزه والحدث في القصة من الموقف الراهن المباشر دون استخدام رموز تراثية أو خوض صريح فيما يسمى بالعلاقة التاريخية وتجسد الشخصيات الثلاثة الرئيسية في القصة ذلك البناء الفلسفي الذي تقوم عليه القصة والذي يرتبط بالشوق الصويح للأرض والحلم الثوراتي الذي يصوره أرض إسرائيل. «قالت: شيء ما بداخلي يعني. لكن دون نغم. بماذا يعني؟» . إنه يعني هكذا... العشب الأحمر يشتمل بيضاء، انهر الأخضر يتدفق للأبد. ماذا بعد ذلك؟» . ليس بعد ذلك شيء. فما قلته يتكرر... ويتكرر للأبد.

1 - أن العالم الخارجي للايهودي هو عالم بطبيعته ضد انسامية وسيلجأ هذا العالم أخيراً إما لتدمير اليهود وإما لامتنصصهم.

2 - لا مفر لكل اليهود في العالم من مغادرة أوطانهم التي يعيشون فيها «المنقره» ويعودون إلى أرض إسرائيل الخاصة والمطلقة لهم. والهدف من العودة أحياء دولة داود وسليمان القديمة، يحدوها المقدسة وبلطيف العبارة فهذه الأرض وطن اليهود

3 - في سبيل الحفاظ على نقاء العنصر اليهودي يجب طرد كل إنسان غير يهودي وإذا ما رفضوا فإنهم يجب أن يعيشوا تحت شروط سيكولوجية قادرة على خلق جدار متيع يفصل بين المجتمع المقدس والغريب وهذا تعبير مأخوذ من الثورة. ويحمل الأزدراء والاستخفاف. من هنا سلحت الصهيونية ومنذ البداية بطرق تنوء الوفائع التاريخية محاولة استخدام الحوادث العابرة لخدمة أهدافها. لهذا يركز الصهاينة في وثائقهم ونشاطهم الدعائي على محاولة البرهان على حق اليهود في فلسطين كوطن تاريخي لهم طردوا منه بالقوة. وذاقوا الأمرين طيلة عدة قرون. ولكنهم ظلوا يحملون بالعودة إلى هناك لهذا أقتنت الصهيونية كل دعوة لعداء اليهود لدفعهم للانغلاق والمحافظة على «الجوهر اليهودي» ثم دفعهم لتحقيق المآرب الصهيونية لإنجاز الوطن المزعوم وهنا باتت الهجرة والاستيطان ضروريين لتحقيق قيام إسرائيل على الأرض التاريخية المزعومة. ونقد أشار بيجين ذات مرة في برنامج الانتخابي إلى الهجرة وأهميتها للكيبان الصهيوني قائلاً: «ستعمل الحكومة على تشجيع الهجرة باعتبارها على رأس الأولويات» من هذا المنطلق تم ديج هري بأكلها على الطريقة النازية وأصدر القوانين المساعدة للاستيلاء على الأرض. ووصم كل من ينتقد نصرهاتهم بصفة الانسامية ورغبة زيادة اليهود.

وبما أن الظاهرة الأدبية الصهيونية ظاهرة مصطنعة لعدم وجود أدب يهودي بالمعنى العلمي لهذه الكلمة نظراً لأنه لا يفوض في العمق إنما يسير باتجاه السطح لغاية إعلامية تخدم أهدافاً سياسية في العصر الحاضر كما كانت في العصور الوسطى بينما كان هدفه قديماً خلق نوع من التزوع لتعالي بوجه الأحداث التاريخية والاتسواء لاجترار تعاليم أثرت تأثيراً مباشراً على بنية اليهود السيكولوجية والفكرية

سمات الحياة الأدبية الإسرائيلية

يشير انتقاد إلى ثلاث سمات في الحياة الأدبية الإسرائيلية تؤكد ماهية الثقافة التي تجري معارضاتها بهدف خدمة الأيديولوجية الصهيونية. هذه السمات هي:

1 - هناك تدخل فقط في حرية التعبير الأدبي الإسرائيلي إذا جنح إلى مخالفة جوهر أهداف السلطة الإسرائيلية وهو أمر يمثل الجانب الضيق من عملية شاملة تستهدف تجنيد الأدياء الإسرائيليين من أجل العودة إلى مفاهيم السياسة الإسرائيلية ومركزات الفكر الصهيوني.

2 - الأدب العبري في إسرائيل يواكب أهداف السلطة وهو أداة في يدها لتحريك الجماهير اليهودية وهو أدب يحمل سمات الصناعة، والأدياء العبريون «أبواق السلطة الحاكمة والصهيونية» هدفها إقناع القارئ العبري بأن نيس أمام العبري إلا الترضوخ لما تلهيه عليه الصهيونية وأن العرب لا يفهمون إلا لغة القوة.

3 - هناك أدب يتحرك لخدمة الدعوة الصهيونية كما يسمى «بالقومية اليهودية» ولربما لها بفلسطين أرضاً وتاريخاً. وفقاً «لمبادئ» التي قام قادة الحركة الصهيونية يخوضون على أساسها حملاتهم السياسية لتحقيق الأهداف الصهيونية وقد عبر عن ماهية هذه الدعوة في إطارها الأدبي الكاتب الصهيوني «حاييم هزار» الذي شغل ذات مرة منصب رئيس اتحاد الكتاب العبريين حين قال «إن عنصرية الشعب اليهودي تكمن في ذاكرته التي ظلت تعي على امتداد عشرين قرناً كونه وحدة غير قابلة للتفتتة وحينما يقول هزار، هذا إنما يريد أن يتخذ منه دور الأديب الصهيوني وتحديده. أن هذا الدور يتحدد في العمل على تغذية الذاكرة الجماعية لدى أبناء الطوائف اليهودية وإثارة مشاعر الانتماء القومي الموهوم لديهم. والعزف على وتر العلاقة التاريخية التي تربط بين اليهودي والأرض الفلسطينية وكما جاء في سفر لرميا «أيها الرب، رجاء إسرائيل كل الذين يتركونك يخزون».

الأرض التاريخية ومعاناة السامية

إن دراسة الوثائق الصهيونية وأفعال الحكومة الإسرائيلية تبينان لنا مفاتيح المذهب الصهيوني والذي هو مدون في نظريات وأفعال هرتزل ووليزمن وبين غوريون وغولدا مئير وهيا دلت صهيونية أخرى. ونستطيع أن نوجز مجمل آراءهم:

التوحد الصويج بين الأرض والمستوطن

هذا هو التوحد الصويج بين الأرض العربية والمستوطن الصهيوني الذي يحاول عبر أغنيته الاستحواذ عليها بصورة نزيه النوايع والحقائق التاريخية والتوحد هنا بين «افيجيل» الأرض. و«افشالوم» الشعب اليهودي الذي وصلها به وشيخة الدم كما يقول الكاتب الصهيوني. وهنا «التزييف الحقيقي في أبرز مظاهره» إذ أنه ينفي وجود الشعب العربي في صورة واضحة لا تتمشى وحقائق التاريخ ويستمر ذلك ليقول: إنها «الأرض» محروسة منه بلا إرادة منها أو منه «أي أن العلاقة هنا قدرية تستحضر التراث اليهودي» «تسلك أعطي هذه الأرض».

ورغم مرور أحداث كثيفة أبدت هذه العلاقة. إلا أنها لا تنتقل عنه. فهي أعماقها تتردد دائماً أغنية التوحد به. أغنية العشب الأحمر التي تروي في باطنها رغم الأضواء والرياح الساخنة والدير القاتمة الغارفة في السبات والمتداخلة في حروف اللغة العربية وهنا إشارة إلى الوجود العربي. الذي رفض الكاتب الصهيوني جذريته فتعته بالثون الباهت.

«عندما خرج افشالوم من الأرفة المتداخلة المشابكة كحروف اللغة العربية. كان قد وصل إلى سوق. محنة يهودا. المقررة هنا تخيلات أدبية لما يقال بصراحة في وصف حالة الأرض المقدسة عبر ما يسمى بسنوات انفي لليهود هي لا تأس من عودة افشالوم فيها هي «الكر اكي المهاجرة طلائع لهجرة ليهودية تبشرها يقرب وصورها».

«مرت أسراب وأسراب من الكراكي متتابعة متلاحقة. كانت هذه الأسراب فيما يبدو قوام الجماعة المهاجرة لثريس. أما ما كان قد ظهر منها قبل ذلك فلم يكن سوى طلائع للقوة الأساسية على فترت متباعدة كان يتردد صوت أشبه بنداء فصير. وفيما عدا هذا كان السكون مخيماً. من أسراب لكر اكي ما كان صغيراً يضم خمسة لوسنة طيور ومنها ما كان يضم عشرين أو أكثر. غير أنهم جميعاً كانوا يتحركون على شكل رأسي صوب هدف لا يحدد عنه وهي صورة وضحتها بن غوريون في رسالته حينها قال «وفلسطين ليست إلا إحدى البلاد التي غزوها. يقصد العرب. أما أهل البلاد الأصليين فهم اليهود» وقد اعتبروها وطنهم عبر لجيل انفي والنشئت. وقد يكون الكاتب اعتمد على قول بن غوريون هذا فحرض في قصته على انتشار في الفعل وتكثيف الهجرة نحو الأرض

المقدسة التي يدعي «رورا». أنها لهم «الليلة». الليلة أستطيع، هنا دعوة حقيقية للإسراع بهذا الفعل. «لاحت ادموع في عينيها.. أمسك وجهها بين يديه فأحس بمدى سخونة وجنتيها. أحس برائحة جلدها وشعرها المسكرة كانت شفتها ترنعتان وعيناها المشرفتان نطفحان بتعبير من الألم والرضا في نفس الوقت. وكانت بكل ما فيها بتلك اللحظات جزءاً من حلم» إنه يقارن هنا بين الوجود العربي وطلائع الغزو الصهيوني وارتباط ذلك بالأرض التي هي في حالة حلم وذهول بعينيها المشرفتين نطفحان بتعبير من الألم لوجودها تحت السارية العربية. والرضا بدياة الوجود اليهودي الذي بانت تحلم به.

«وهجأة بدأت ترنعتن أراد أن يطمئنهما فضمها إليه وجعل يداعب شعرها وكفيتها العاريتين في رقة أحس بأنفاسها الحارة على وجهه وعنقه وسمعها تتمم بكلمات مختلفة. كلمات غريبة ربما قانتها في أوقات أخرى وطفقت على سطح ذاكرتها المضطربة. عله يشير هنا إلى الوجود العربي. وارتباط عرب فلسطين بلغتهم ودياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم. ويعتبر ذلك دخيلاً عربياً على الأرض في فلسطين كما يصور الكاتب. لكن افشالوم «الشعب» وهو رلد بين اليقظة والنام نطائفه رؤيا التوحد ب «افيجيل» التي انتحقت بدار اندعارة وهدمت طهارتها لأنها تعيش في كنف العرب ويعيش افشالوم بأمل نطهرها من النسس. ويتجسد هذا الظاهر في دماغها عندما نذبح ثبعت من جديد أي عندما تغسلها الدماء من آثار العرب. الكاتب الصهيوني سادية يدعو هذا صراحة لقتل العرب. يدعو للمذابح الجماعية التي بها وحدها يسيطر اليهود على البلاد لتصبح الأرض ظاهرة خائصة للقادمين اليهود. وهو هنا يستحضر ما قام به «يوشع» عندما استطاع بالخديعة والمذابح الاستيلاء على «لريحاء» من أهلها الكنعانيين العرب قبل آلاف السنين والذين لا تزالوا يمارسونه حتى الآن باعتبار «أن الشعوب غير اليهودية خارج القانون» ويذكرنا هذا بحال بني إسرائيل بعد ظهور المسيح ثم بحال الذين دانوا باليهودية من الأقوام الأخرى. والذين صاروا غالبية اليهود وعاشوا في أوروبا الشرقية والوسطى فقد عاشوا في جو الأسفار وتلقيناتها ينظرون إلى غيرهم نظرة استعلاء وكيد وكره ومكر وشر. وخلال مسيرة «افشالوم» و«افيجيل» في الطريق الطويل نحو اللحظة المرجوة لتحقيق

الرؤيا يظهر لهما الشخص الغريب المفزع. هذا الغريب «المقصود به العربي صاحب الأرض الحقيقي» يعترض المسيرة. ويظهر متلصصاً مترصصاً في الظلام. «هجأة أفلت افيجيل» وهبت وافقة. جعلت نصيح السمع وراحت تنظر فيما حولها دون أن ترى شيئاً عدا بضع أشجار هنا وهناك. و«افشالوم» ينظر إليها مشوهها قالت في صوت خافت: أشعر أنه هنا.

«من؟ أنك مريضة بالأوهام يا افيجيل». «كلا... أنه يختبئ ربما خلف إحدى الأشجار». «سأبحث عنه... قال «افشالوم» وهو ينهض من مكانه.

ورغم التزوير الواضح للتاريخ لأن العربي لا يواجه في الظلام. إلا أن عنصرية الكاتب أثرت على رؤياه فأسقط ما يدور في نفس اليهود على العرب. فهم الذين يعملون في الظلام وهم الذين سرفوا فلسطين بالنداسايس والتأمير. وصهيونيتهم هي التي جعلت دور الذين بالنسبة لليهود «يختلف عن دور الذين عند الشعوب الأخرى وذلك بهدف جعل التوجه الديني للحياة اليهودية مصيراً لوعي الصهيوني الذي هدف منذ قيام الصهيونية إلى استعمار فلسطين وما حولها» بأية طريقة وهذا لن يكون إلا بالقوة لقد ظلت هي العامل الأكبر في تأكيد المقولة الصهيونية «الأرض التاريخية» وكل انعكاساتها على الأدب والأدباء. فهي هي الكاتبة الصهيونية روث الموجي» تدعو في قصتها «كان يمكن شراء مدفع بهذا المال» «لا اعتماد هذه القوة من وقت قريب ورعوا عندنا منحاً مائة على الأدباء ألم يكن من الممكن شراء مدفع بهذا المال. يكفينا الخبز. عس الغراب من الكماليات تماماً مثل الحلوى».

تدعو الكاتبة هنا إلى الحرب التي لا يمكن بدونها أن تتوحد بالأرض الكاتبة روث في قصتها هي الأرض وميخائيل بطل القصة هو الشعب والأرض هي التي تطلبه وأي ثمن نتوحد به وعبر جو جنسي يبرر هذا التوحد «كان في مقدوري أيضاً أن أقول له: أن الصلة الجسدية هي غالباً العدو رقم واحد ولأنها تؤدي بنا في الواقع إلى تحويل الحب تحويل الحب من انظري إلى العملي. من الحياة في أوروبا وغيرها. من موطن اليهود إلى التوجه نحو فلسطين أي أنها تدعو لرفض الاندماج في المجتمعات الغربية والمواطن الأصلية لليهود. في قصته «لا تون للخوف» التي تتحدث عن الحرب للكاتب جدعون تلياز قد



يبدو للقارئ السطحي من تتبع أحداث القصة أن الكاتب يتألم للحرب وأنه يقف منها موقفاً راديكالياً. ولكن متتبعاً لأحداث القصة يؤكد عكس ذلك. إذ أن الموقف الراديكالي والموضوعي للكاتب ومن اتناحية الإنسانية على الأقل يتطلب توضيح حقوق الآخرين، والآخرين. الفلسطينيون. ولكن الكاتب لا يتطرق إلى ذلك. إنه يتألم للقتلى اليهود الذين ينهبون ثلاعاتهم على الغير لتحقيق مقولة الأرض التلويخية.

«كان الموت أسهل الطرق بالنسبة إليه وجدوه محترفاً ومختلماً بجزئيات إحدى الدبابات كان من المستحيل معرفة أين تبدأ جثته وأين تنتهي جثة الدبابة لم يبق على أصله الأول سوى الأشلاء وفطع الصلب المغطاة بالتراب أما سائر الأشياء فكانت منتهية إلى الماضي. كالدودة المتحجرة أما الحاضر فقد كان الذباب. ذباب الجبل في بداية الوحشة النظيفة ورغم الألم الذي يديه الكاتب للقتيل اليهودي إلا أنه يظهر إعجابه ببراعة الطيار اليهودي المقاتل الذي يلاحق الأعداء «الأغيار» الذين يلقون اليهود ويظهر الكاتب بهذا المعنى هويته اليبغية وهو بهذا لا يخرج عن مقولات الصهيونية في تفوق العنصر اليهودي الذي يستعمر الأرض ويجلب لها الخير على حد زعمه «من يجلب مجيئنا إلى غور بيسان أي ضرر على عرب المنطقة. العكس هو الصحيح ويستدل الصهيونية على هذا بقول أحد الخونة قبل عام 1948 حسب ما أورد ذلك بعض الكتاب الصهيونية على لسان عربي من حوران: «اسمع.. أعمل في منطقتكم أكثر من سنة. وكذلك في منطقة حيفا ولرى التقدم وبناء البيوت عندهم وكل هذا بسبب الهجرة اليهودية إلى فلسطين بسبب المهاجرين الذين يبنون البيوت والحدائق. ومزارع الأبقار والشوارع والأرصفة إنهم بحاجة إلى العمل وكل عائلة يهودية تستوطن فلسطين تعيل ثلاث عائلات عربية. هذا هو سبب تقدمكم هنا. وعدم تقدمنا في حوران لأنه لا توجد عندها هجرة يهودية».

هذه هي الصهيونية وهذا هو الاستيطان والفطرسة. عائلة يهودية تعيل ثلاث عائلات عربية. والعرب يرحبون باليهود في حوران «سوريا» وهذا كله لن يكون إلا بالقوة. يقول تليار في نهاية قصته وبعدها اختفت جلية المحرك من أدنيه وهتج الطيار عينيه واستقبلته أحضان حارة وربات على الكنف وهو ينزل إلى الممر.

هل لدى أحدكم سيجارة؟ سأل.

من كل جانب مدت إليه علب مفتوحة سحب سيجارة من إحداهما وأشعلها له أحدهم جذب الطيار نفساً عميقاً ثم أطلق الدخان من رثيته ثم ألقى السيجارة وداسها بقدمه. وما زال كل هذا غير حقيقي. ذلك أنه لم يبدأ في الإحساس بصلاية الأرض تحت قدميه إلا بعد الخطوة العاشرة يعني ضرورة الاستمرار في القتل حتى النهاية؟.

في قصة «ش.دوفين» بعنوان «مأخذ الشيطان على هاوست» نرى نموذجاً فنياً مركزياً لأدب مقولة «معادة السامية» ودفع اليهود للهجرة إلى الأرض التاريخية في جانبها الوصفي وإذ أن المعروف أن الشيطان في سفر أيوب يلعب دور الشر. وانسفر من كتابات التأمل اليهودية المتناثرة بروح الحكمة والفلسف اليوناني خلال فترة الحكم اليوناني في الشرق وهو يناقش مسألة الشر في العالم وي طرح تساؤلات محددة حول مبررات العذاب الإنساني الذي يلحق الأختيار من الناس. الشيطان في سفر أيوب يوعز إلى الرب لإنزال ضربات متلاحقة بأيوب لاختيار إيمانه لأن ذلك سيكشف ريف عقيدته ويستجيب الرب للشيطان ويأمره بالتحصرف «أبسط الآن يدك ومس عظمة ولحمه فإنه في وجهك يجذف عليك» هذا هو دور الشيطان في سفر أيوب دور محرض القوى السماوية العليا على إلقاء العذاب بالناس ودوره في مسرحية هاوست كما يفهمه كاتب القصة دور الشرير الذي يغوي البشر ليعرض عليهم ممارسة الشر والوقوع في الخطيئة. فما الدور الذي ينيطه كاتب القصة هنا بالشيطان؟

يوضح د. النحر اوي في تحليله لهذه القصة «أن الكاتب أبرز الشيطان وجعل له دوراً أساسياً فيها فهو لثراوية ومقدم التقارير لذات الإلهية ويرغم شروره. إلا أن العذاب الذي أصاب اليهود جعله يرق لهم أي أن من يعذب اليهود أشد ضراوة من الشيطان نفسه».

«يبدو الشيطان أكثر الجميع دهشة. إنه يحاول أن يحد من انفعالاته لا بد أنه سيثور معرباً عن موقفه بوضوح غير أنه تعجب الجميع. فيما عدا النائب. لا يفعل لم يجد أمامه سوى النائب ولكن يبدو أن دهشته الكبيرة لم تكن بالقدر الكافي لإخراجه عن صمته».

سأل النائب عن الرجل الذي يتعذب من سنين في أوشفيتس قال النائب «عني الرجل الذي لا يكف عن الاستشهاد بسفر أيوب».

أي أن الكاتب يريد أن يقول لنا أن هناك العديد من المعتقلين في سجون النازي ورغم هذا لا يهمهم منهم سوى اليهودي ذلك الذي «لا يكف عن الاستشهاد بسفر أيوب» أي الثورة وهنا محاولة رخيصة لغزو العقل الإنساني وشده للتعاطف مع اليهودي المسكين وإبراز الأناية التي يتميز بها اليهود وهذا يوضح احترام اليهود وعدم قتلهم أو اعتقالهم دون أي اعتبار إلى الآخرين. وفي أتون ذلك الموقف تبرر هوية الكاتب وخطرسه لتتضح الثقافة العنصرية للشعب المختار الذي يميز بالبطولة الفذة. حتى الأطفال فيه يجابهون الأمان ويتخطون أسلاكهم الشائكة المنبوعة وهذه لهجة «السوير طفل» الإسرائيلي بكل تعاليها والتي تكثر في أعمال الكاتب الصهيونية مثل كرميلي وسروج وسير وغيرهم وقصة «دينين» الطفل اليهودي

المقاتل الذي يهزم الأعداء في كل زمان ومكان، في قصة «أنا مهاجر» يدعو أي.ش. مأمور اليهود للعمل في فلسطين لخدمة الصهيونية. «المهاجر هو اليهودي الذي يسافر إلى إسرائيل لتكريس حياته من أجل الوطن ومصالحه، عندما سمعت هذا التعريف تذكرت يهودياً كنت أعرفه عرف كلمة «حاثوثس» رائد الهجرة. بأنه كتلة الحديد الخام الذي يخلق للوطن ما يحتاج إليه، لم يكن اسم ذلك اليهودي «ساشاء» بالطبع وإن كان اسمه قريباً من هذا في جرسه «أوسياء» ترومبلور وهنا دعوة للافتداء بمن يسمون في الحركة الصهيونية بالرواد الأوائل ومنهم هذا المدعو «ترومبلور» ومن جانب آخر دعوة للصهينة اليهود الروس وعدم اندماجهم في مجتمعهم الروسي حيث ولدوا وعاشوا، لهذا يستحضر شخصية «ترومبلور» الحاثوثسي الأول «المهاجر» الذي حارب في روسيا وفي الشرق، وقد ذراعاه وقرر أخيراً الذهاب إلى فلسطين للعمل والمقاتل فيها من أجل الصهيونية فهو «ساشاء» الروسي، ولكنه استبدله بأوسياء ترومبلور وهكذا نترجم مقولة الأرض التاريخية لقاضية بحق الملكية المطلق للأرض العربية في فلسطين في شكل فني تتداخل فيه مقولة افتداء للسامية الساعي للقضاء على اليهود مع الأرض التاريخية لليهود، واليهود وحدهم.

العنصرية والتفوق

الدور الذي لعبه الأدب الصهيوني على الصعيد الدولي لا يقل عن الدور السياسي الذي قام به رواد الصهيونية السياسية الأوائل، والأثر النفسي الذي أحدثته روايات وكتابات «بنسكر» و«هرتزل» ولحاد «ساعام» الأدبية لا تقل أهمية عن كتاباتهم السياسية والأيدولوجية. لقد وقف الأدب السياسي الصهيوني أمام التسامح بقوة ومنذ البداية مقاوماً أي تطلع جدي لحل المشكلة اليهودية، معارساً التزوير وقلب الحقائق ومركزاً على أحداث الماضي لتبرير أحداث مستحثة لتبدي ذلك الزمان وذلك المكان مثيراً عداة الشعوب بسلوكتيه الشاذة على الصعيد العملي والنظري وإذا كان جام الغضب صب على العرب قديماً وحديثاً، فإنهم ركبو المركب تجاه الشعوب الأخرى فلم يسلم أحد من شعوب الأرض من سهامهم العنصرية المورثة وما كان الأدب الصهيوني أدياً موجهاً فإنه بالتالي يعكس سياسة وفكراً وفلسفة تتبناها الصهيونية جميعها

وتعززها تلعب دورها المرسوم والمخطط لها وتشكل فكرة التفوق لحد المكونات الأساسية للفكر الصهيوني والتفوق الذي يحدث عنه الصهاينة تفوق شامل بالإضفة إلى أنه أبدي أي أنه ليس مرهوناً بفترة زمنية معينة تمتد منذ صراع اليهود مع فرعون ودخول «يوشع بن نون» أريحا ووقوف اليهود ضد الرومان وحتى الحروب الحديثة بكل ما يرتبط بذلك من أساطير وخرافات قديمة وخطرسة وتزوير متعمد لتاريخ المنطقة، لأن ربط هذا التفوق بمرحلة تاريخية معينة يؤدي إلى حرمان الحركة الصهيونية من استثمار هذا المفهوم أيديولوجياً ومن أجل ذلك نرى الصهيونية أن يبجن مثلاً هو صهيوني نقي، فإن يكن المرء يهودياً يعني عند الصهاينة أنه متفوق بذاته ولذا يحسده الأغنياء ويودون لو يزيحوه من طريقهم، فالذات اليهودية هي محور العالم ولا يهم أن يكون للأغنياء أي نصيب، وبذكرنا هذا في الوقت نفسه يقول بن غوريون «لا يهمني ماذا يقول العالم بل اليهود». لأن الصهيونية في نظر اليهود جزء من إرادة السماء وأن اليهود قد توحدوا بالرب وأن الفرق بين اليهودي وغير اليهودي هو من النوع الذي ينطبق عليه التعبير لسانك «لا وجه أشبهه» ففي حين يجلس اليهودي في المرتبة العليا وينحدر من الصنف الأسفل يتبع بقية الأمم من التبرك الأسفل وتنحدر من أدنى صنف، وهكذا نرى أنه من العبث البحث عن وجه للشبه بينهما، وحسبما جاء في كتاب «هاجر» المقدس عندهم فإن الجسد اليهودي يختلف كلياً عن أجساد بقية الشعوب وذلك من حيث أكلهم وشربهم ولبسهم وإن كنا نرى ثمة تشابهاً في الأجساد فما ذلك إلا في المظهر الخارجي فقط أما دخلياً فالفرق بينهم كبير إلى حد يجعل الجسد اليهودي لا يمت بأية صلة كانت إلى صنف بقية الأجساد لأبناء الأمم الأخرى وما يصح على الجسم «المادة» يصح أيضاً على النفس «الروح» إذ أن أصل لروح بني إسرائيل هي من الروح المقدس ذاته، ولهذا فإن الانتصارات اليهودية الحديثة كما يرى الصهاينة «ليست فقط لأفضلية إسرائيل بل للمميزات الأخلاقية، أي أن في اليهود روحانية تميزهم وتجعلهم يتفوقون وينفون أكثر من غيرهم» من هنا استبظت مفاهيم سياسية، انتمصب إحدى أبرز سماتها، كما تقول الشاعرة العنصرية الصهيونية «أنا جرينو» في إحدى قصائدها التي تتعالى فيها على العالم:

قالت لي أمي بأني
ابنة لشعب غني بالأسفار.. والأغنياء جهلة
حدثني أن أكون بالمقدمة
لأني يهودية
قالت أمي «أنتي ابنة شعب لا يقبل الضياع
واجبي مواصلة الترب.. درب أبي
لمواجهة الأغنياء الأعداء
ولو كانوا كل العالم.

مقابل هذا الاستهزاء بالآخرين فإن هذا الأدب ما برح يضحك للمميزات الذاتية المكونة ماهية الصهيوني، فهو باعث حضارة الأمم ودافع عجلة تقدم الشعوب وأساس المدنية، إن النظرية الصهيونية تعتبر بحق من أكثر النظريات الرجعية العنصرية الشوفينية خطراً على الفكر التقدمي العالمي وذلك من خلال جوهرها الذي ينم عن معاداة الشعوب في العالم أجمع لأن «المفاهيم» الفلسفية التي تعتمد عليها الصهيونية سلاحاً أيديولوجياً تكمن في جوهرها حقيقة العقيدة الدينية الوضعية الجامدة للديانة اليهودية وهي تتجلى في الأسطورة التي نتحدث عن اتحاد اليهود مع الله والاعتقاد باستثناء اليهود والرجعية المعتمدة في هذا التكيان لها طابع أكثر توسعاً وعمقاً ومن هنا كانت دعوات الصهيونية البحث عن أرض تضفي صفة الشرعية لتكيانها بأي وسيلة حتى ولو كان القتل والاختصاب أساساً لها، في مقطع بارز للشاعر «جراثيل» يظهر وضوح ما تكنه الحركة الصهيونية للإنسانية من كرهها هو يقول:

لا نطلب الغفران كقط ساعة التزو

هذا زمن الذئاب المفنصية

لا التتسك والصومعة

هكذا استطاع المخطرون الصهاينة انفاذ إلى أعماق الفرد الصهيوني بالإيحاء المستمر بشيخ الدياسبورا «الشتات»، وكان الأدب الوسيلة الممكنة لافتحام نفوس اليهود والسيطرة على غرائزهم العدوانية فالأديب الصهيوني «حانوخ» برطوف» يرى أن التغيير هو معرفة القتل والمشكلة هي مشكلة وجود يهودي، لكي يستطيع الوجود يتوجب عليه القتل، بهذا المنطق غمرت الكتب الأدبية أسواق الأرض المحتلة، وكلها تشيد بالجندي السويرمان والجيش الذي لا يقهر في الوقت نفسه وينفس القوة تحاول الحط من القدرات العربية وتنتقص من ميادها الإنسانية وترأها.

البلاد أعطيت لها وحدها فقط، وتعرض الرياح سيبله وتساؤه ماذا يفعل هناك فيجب بأنه يتجول ونهزأ منه الرياح فتهب وتوقع الأذى به ويخيمته ولا يدع «عجنون» الأسى يشرب إلى نفسه ويعود ليبنى بعزيمة ونشاط بيتاً قوياً ذا أساسات عميقة في المكان نفسه في «تليبوت» وتأتي الرياح فلا تستطيع هدم البيت بل تهدم ما حوله وتخزيه ويقوم عجنون بزراعة الأرض وتأتي الرياح لتفعل فعلها من جديد ولكنها تفشل لأن الأشجار ضربت جذورها وصعدت أمام الرياح ومنذ ذلك الحين أصبحت الرياح تزور اندار بصورة مهذبة وكذلك تعرفت أنا عليها ومنذ ذلك الوقت أصبحتنا أصدقاء.. هذه القصة إشارة واضحة للصراع العربي الصهيوني بتسلسله التاريخي فالريح هم العرب وهقوا في وجه الهجرة الصهيونية المبكرة «الخيمة» لكن ازدياد هذه الهجرة وضرب الخيمة أوتادها بتكوين دولة الكيان الصهيوني أفسدت الفعل العربي فكانت هزيمة 1948 «الأشجار ضربت جذورها وصعدت أمام الرياح» فلم نستطع الرياح هدم اندار عندما صارت مثبنة الأساس قوية محاطة بأشجار عميقة الجذور. وأن هذه القوة غلبت العرب وفرضت عليهم أن يحبوا صاحب البيت «إشارة إلى السلام الميني على القوة الذي يجب على العرب الافتتاح به لأن دبابات الجيش الإسرائيلي كما قال ديان «هي التي تأتي بالسلام والأدب العبري يظهر العربي إنساناً مختلفاً لا يعرف كيف يتصرف وأنه بعيد عن الثقافة والتحضر». «هموشيه ستايبسكي» يؤكد «أن شروط النظافة والمحافظة على الصحة تكاد تكون منعدمة بين العرب ويضيف «إن عادة الاستحمام تكاد تكون غير مأثورة عندهم باستثناء غسل بعض أعضاء الجسم من أجل الصلاة والنوضوء». ويدعي تروا أنه نقل عن امرأة أنها «أقسمت بالله أنها وندت ستة أولاد دون أن يمس الماء جسدها» ولا يشعر «ستايبسكي» بالكذب عندما يقول إنه «لا يستبعد أن ييصق صانع القهوة في التفاجين كي ينظفها». في قصته «بلاد بنات أوى» يوضح «عاموس عوز» على لسان شاب يهودي يدعى «متيتياهو» بعض تخيلاته التي هي صورة مخيفة لسبل جارف من القذارة «جمهور فنر غامق اللون، يقشر القمل والبراغيث وله رائحة كريهة، والجوع والكرهية بسبب جفاف وجهه تتوهج عيونهم توهجاً جنوبياً». وقد امتدت هذه الأوصاف لتشكّل توجهاً

«أيوناثان غيفن» تحت عنوان «عدت من إجازتي» يقول الشاعر ائقال:

يجب عليك أن تقتل

حين تعود وتقص على والدتك

أشياء كثيرة وجميلة

أشياء جميلة

ماذا ائقتال؟

ماذا هذا السلوك من العرب؟

لأن العربي حسب الأدباء الصهاينة لا يفهم سوى لغة واحدة، فهو يحترمك كلما عاملته بقسوة وفظاظة، القوة هي اللغة الوحيدة التي يجب أن يعامل بها، وإذا ما ارتفعت عنه القوة وعومل بلبونة فإنه يعتقد أنك نخشاه فيتهمد، إذن فالعربي في نظر الكاتب العبري يجب أن لا يعامل عن طريق اللد لند وكثيراً ما نجد أن هذه العبارة في قصص الأدباء الصهاينة «إن العرب لا يحترمون جراً ضعيفاً. ويضيف «يهودا أشريير» في قصته «القائد الأول ليهوداء اعتداءت العرب المتكررة صباحاً ومساءً على اليهود الذين يسكنون على الحدود بين يافا ونل أيب بأنها تسلية يتسلى بها العرب «وكانهم ليسوا أصحاب قضية» وهنا إشارة إلى أنهم قتلة همهم الاعتداء فقط ويقول الكاتب: إن مجموعة من انشيان اليهود فررو الانتقام ومهما كان الثمن. وفعلًا توهف اعتداء العرب بل وتقدموا بالشكوى إلى السلطات البريطانية، وهذا الرأي شائع بين اليهود في فلسطين المحتلة. فلقد أجرى «يوحنا بيرس» وهو أستاذ في جامعة تل أيب استطلاعاً للرأي دل على شيوع هذه الفكرة بين أبناء الطوائف الشرفية بشكل خاص إذ أجاب 89% منهم بوجود مثل هذه الفكرة عن العرب. وتجدر الإشارة إلى أن كاتب القصة لم يذكر الأسباب الحقيقية التي حفزت العرب لقيام بهذا الهجوم سوى أنه كان انتقاماً للاعتداء على نص أثم «الخص هنا هو العربي» لم يذكر الكاتب من كانت هذه الكروم والمزرع وهنا تزوير حقيقي للتاريخ ويتبع شموئيل عجنون لإبراز هذا المعنى في قصته «من عدو إلى محب» أسلوباً رمزياً فهو يتحدث عن صراع مع الأيام ذلك الصراع الذي بدأ عندما نزل الكاتب في منطقة «تليبوت» إحدى ضواحي القدس حيث بنى خيمته فيها: «قبل أن يبنى تليبوت كان يحكم كل البلاد ملك الرياح ووزرائه وعماله. رياح قوية تسكن في الجبل وفي السهل، والثلل، والبرلري وتعمل ما نشاء. وكان

في قصة «الينبوع» يقصر الكاتب الصهيوني هشترة أعمال أبطائه العدوانية في فلسطين بسبب الأعمال الثائرة في ألمانيا: اليهودي يلت المفجوع بمقتل حبيبته سارة التي لقيت مصرعها على يد النازيين يقتل العرب ثلراً من الألمان «كان متعباً ولكنه أحس جسده خفيفاً بصورة لا تصدق واستدل نحو انديابتين هذا من أهلك يا سارة من أهلك» وجوزيف في رواية لصوص الليل يمارس الإرهاب في فلسطين لماذا؟ لأن «دينا فلت في ألمانيا. أما إذا كان الكاتب مثالياً فقصته ستنتزع بطولات خارقة وفيرة نقل الحديد. يمكن معها إدراجها ضمن الأساطير وقصة «ساعة واحدة لإسترة للكاتب الصهيوني «كونراد برمش» تسير بهذا الاتجاه.

في قصة «خربة خزعة» يورد القاص «يزهار سمونسكي» أحداث كثيرة ومتنوعة بين الجنود الإسرائييليين قبيل احتلال القرية وبعد لحتلالها. ويمكن أن نفهم من هذه الأحاديث نفسية الجندي الإسرائيلي «البطل» ورأيه في العرب من النواحي النفسية والاجتماعية والثقافية فيترك القارئ ماذا تضمه هذه الشخصية من شعور تجاه العرب.

مما لاشك فيه أن قصة «سمونسكي» خربة خزعة هي صور متعددة انتزعها المؤلف مما وصل إليه من فظائع الحرب الفلسطينية وفيها تظهر آثار الثرية الصهيونية للناشئة آنذاك وما حشده فيهم من غطرسة وشعور بالثوق وانسامي. والكاتب «عاموس عوز» في قصته «الرجل والأفعى» يبرر هذه الأعمال ضدهم فلقد جاء في قصته هذا النص: «اليدوي يشم رائحة الضعف من بعيد فإذا لاطفته بكلمة طيبة أو ابتسامه يهجم كالحيوان المفترس يحاول اغتصابك حتى أنتي هربت منه. أنا لا أرتجف من المياه الباردة بقدر ما لرتجف من الأشمئزلة. ما أشد أسوداد أصابعه كيف أمسك بي من رقبتي فقط بالضرب وبالرفس هربت منه يجب أن اغتسل بالصابون» إن صورة العربي في هذه القصة كما رسمها «عوز» حالات صراع بين «الإنسان المتحضر الذي يمثله عادة اليهودي ابن الكيبوتس والطبيعة المهتدة بالخطر وممثلوها هنا هم «بنات أوي العرب والجبال».

إذن هل يحق لهؤلاء العرب، في رأي الصهاينة، الحياة بالطبع لا، وهنا تكون البطولة هي القتل، والقتل فقط ومن يقتل هو البطل، ففي قصيدة



تربوياً لأطفال الصهاينة بكل ما يخلقه من شعور بالاستخفاف المهين بالعرب. ويرى علماء الاجتماع أن الإسقاط الذي يدفعه الصهاينة ويلصقونه بالعرب يدخل في إطار ما يعرف بالاتجاه العرقي والذي يقصد به «اتجاه يثناه الشخص حيال بعض أو كل أعضاء جماعة عرقية بشرط أن يتأثر هذا الاتجاه بمعلومات مفترضة حيال الأفراد والجماعات».

وبناءً على ما سبق فإن القيم الصهيونية والتي تشكل معياراً لأصحابها وترتكز على مجموعة نظم من المعتقدات في جانبها الأدبي تتمثل في انضمام النوعي من الاتجاهات كحالة مركزية تحدد سلوك الأفراد في المجتمع الصهيوني ورغم أنه قد لا يعي الشخص القيم التي تشكل نسقه على المستوى الشعوري وبالتالي فإن التعبير الصريح عنها يكون مضللاً إلا أننا نرى في أعمال الصهاينة وبدون استثناء فوائدها من العداة ثابتة ضد كل ما هو عربي كالخيانة والقدرة والتخلف أي التهمجية بشكل عام. إذن ينبغي أن ينتهي العربي المتوحش القذر ويبقى اليهودي المنحضر والمسالمة الذي يعمر المنطقة ويبقى عليها سمات حضارية رفيعة. هذا التزوير انعكاس لصفات اليهود «السلبية» الكثيرة أبرزه الكتاب العالميون فقد وصف شوسر اليهودي بأنه يحمل صفات

سلبية مختلفة كالكائن وقائل المسيح والمتوحش وغيرها. وقال مالرو في رواية يهودي مالمط: «إن اليهودي مسبب لانتشار الأوبئة» كما أطلق نفس الصفات على اليهود الأدب البريطاني وولتر سكوت وتكررت أسطورة شايوك في رواية ليفينهو وفي رواية أولفرنويست لديكز كما استأ صورة اليهود عبر القناعات الثابتة في أعمال برايت وانثوني ترولوب وداموريا. وغيرهم وجاء بحث ثروينجر بأن صفة اليهودي في الأدب الإنجليزي ظلت ثابتة لم تتغير وأن التغيير الذي طرأ عليها كان غير ذي أهمية وسيطرت عليها اقوال الثابتة ورغم هذا تحاول الصهيونية إسقاط صفاتها على العرب وفي محاولتها ترسيخ هذه الفكرة اصطدمت بمقاومة الشعب العربي الفلسطيني الذي لم تستطع أن تنفي وجوده كلية وأوقعها هذا في تناقض حاولت تجاوزه من خلال تركيز دعايتها على شخصية العربي القذر الذي يتناول عن أرضه راضياً. ومن الأمثلة على ذلك شخصية «رشيد بك» في كتاب هرنزل «الأرض القديمة الجديدة» التي ترحب بالمشروع الصهيوني بما يعني أن العربي لا يستحق هذه الأرض.

وهذا يتسفه ما ورد في يوميات «يوسف فايس» مدير شعبة الأراضي والأحراش حول تخطيط

وتنفيذ عمليات التوسيع، وقد لاذ الأهلون بالصمت التام عدا رجل واحد انبري قائلاً: ليس على وجه المعمورة كلها أفضل من نرابنا ولا أفضل من مناخنا وأن حفنة تراب بين صخورها تساوي سهول العالم بأسره».

كتب أحد طلاب المدارس العليا موضوعاً إنشائياً حول العرب فقال: «إن العرب يريدون مواصلة ما بدأه الألمان وقتل جميع اليهود في أرض إسرائيل». وقال تلميذ آخر في وصف العربي: «وجهه غريب صغير، مشير للفضب، وشعر أخضر من بلاد ليست بالديانة، ومن الملاحظ هنا وجود عبارة «ذو شعر أخضر» وهي تدل على التباعد الهائل وانعدام الائتفاء والجهل، وكان العبارة مقتبسة من أدب العلوم الخيالية الذي يصف مخلوقات غريبة ومثيرة للربح. نهدنا لكونها غريبة عناء إذن الفكرة الصهيونية توجه الأجيال اليهودية عبر كتابها نحو عنصرية ضد العرب يحاولون غرسها في نفوس الطلاب. ففي سؤال من مجموع أسئلة امتحان «الإعانة» لطلاب «جفعون» عام 1971 جاء ما يلي:

«لم يتوقف استيطان اليهود لفلسطين أبداً. ويفض النظر عن عددهم الإجمالي في البلاد. كان الكثيرون منهم مفكرون وحكماء ومبدعين وبالمقارنة معهم فإن العرب والمسيحيين الذين

بناءً على ما سبق أو المفترض على الأقل أن نكتسب صورة العربي في الرؤية الأدبية ملامح مختلفة فلا يعود ذلك القائل المنعطف للدم اليهودي دون دفع سوى غريزة معاداة السامية. وأن تتغير بئنا في هذه الرؤية صورة المحارب الإسرائيلي ذلك الإنسان «المسلم» الذي يضطر إلى القتال والبلاء المجيد فيه ضد موجة الخطر الجديد الذي يشهه العرب. في قصيدة «الحرب المقبلة» للشاعر الصهيوني «يعقوب ياسار» التي كتبت عام 1962 يتصور القارئ أن الشاعر رافض للمقولات الصهيونية وأنه متمرد ضد أصول السياسة الصهيونية:

وإفخاع العينين جملان في ثوب لثليل انبيهم

يرشف كلاهما من هم الآخر

مياه الرعب الخضراء

ذلك لأننا نستنتج في أن وثقة

زهرت الحديد في الحرب المقبلة

ما بين حجات التيوم وحجرات الأولاد

إذا ما شبعنا إلى هذه الفقرة من القصيدة وإلى صورة الجميلين الأسودين اللذين يتبادلان الحقد ويرشف كل منهما من الآخر مياه العرب لاكتشفنا أن الرؤية التي تحكم الشاعر رؤية موضوعية لا تتجاوز الاستجابة لواقع الألام التي تتأمل أصول الصراع ودوافع إثارته فليس الجميلان سوى طرفي الصراع والشاعر يختار رمز الجمل للإشارة إلى كل منهما على أساس نظره أن العرب الساميين المنحدرين من أصول صحراوية لا يجابهون اليوم سوى العبريين الساميين المنحدرين من نفس الأصول. من جانب آخر أستطيع الادعاء بل التأكيد بأن عنصرية الشاعر وارتباطاته الأيديولوجية الصهيونية تبرر في التعبير المستلهم من الصحراء بمعنى ارتباط اليهود بهذه المنطقة وجذريتهم فيها.

وهذا نزوير للتاريخ فالوجود اليهودي في المنطقة كان عابراً ونقطة قصيرة جداً ليس لها وزن بل يطلق في التاريخ وهذا يلغي بالطبع تعريف الصهيونية للقومية اليهودية القائل بعدم تجريرها من الأرض. لأنه لو تم ذلك لكان هذا قضاء على طابعها المميز الذي يستهدف الوجود العربي كله ومع ما في طرح الشاعر الصهيوني من خطأ تاريخي حيث أن الصهيونية ليست تعبيراً عن امتداد سامي سلالياً أو حضارياً أو عرقياً. فإن الشاعر رغم براءته الزائفة ينتصر لهذه الصهيونية. فهو في كونه وضع الطرفين في وضع متساو «الجميلان» فكلاهما يبادل الآخر

على جائزة «نوبل» فهو أدب ميكافيلي بكل أبعاده نخل عن واجبات الأدب الضرورية «الحق، والخير، والجمال، وأثر الانتصاق بالثورة التي جعلت مفهوم المطلق والجوهر في خدمة الأحيار وبالثاني فقد جاء أدباً مصطنعاً يرشح بالذكاهية والحقد إلى أبعاد الحدود.

البراءة الزائفة والأحزان الموضوعية

يقع درس الأدب العبري أسيراً لحائنة من الحيرة والدهشة لدى اطلاعه على اتجاهات هذا الأدب بعد حرب أكتوبر 1973 ومحاولة إيجاد علاقة انعكاس وتأثر تربط بين الاتجاهات العامة في هذا الأدب وبين التغيرات التي أحدثتها الحرب فلقد لحقت بالتمودج الفكري الصهيوني الذي يصوغ الموقف من العرب والأرض العربية ارتعاشه أثرت موجة المراجعة الفكرية فبدأت تظهر في المصادر الصهيونية تأملات فلسفية تطرح أسئلة من نوع «هل كانت الأيديولوجية الصهيونية في أساسها أيديولوجية عنف وأنانية هومية أم كانت أيديولوجية تسعى إلى العدل وتشد انتباههم مع شعوب العالم بما في ذلك الشعوب العربية؟» وراحت تطرح توصيفات للوضع الأيديولوجي السائد قال عنه أحد الصهاينة «أنا لا اعتقد أن دولة إسرائيل أو الصهيونية جواب شاف على قضية الشعب اليهودي».

من تحليلنا لنصوص ما بعد حرب أكتوبر نرى الاستجابة الأدبية الصهيونية وما تلاها من ارتعاشات في قاعدة المقولات الزائفة بمثابة إضافات كمية لم تبلغ القدر الكافي لإحداث تحول كيمي في أوضاع الحياة الإسرائيلية سواء في مستوى الوجود المادي أو مستوى الوعي فيها. أصبحت المقولات الصهيونية بين مد وجزر ترتبط بالعلاقة الجدلية بين الرهض العربي وحلم القبول بها.

ومن هنا استمرت في الأدب الإسرائيلي حتى الآن تلك الاستجابة المكونة من شعبتين «شعبية» التأمّل والتوجع الموضوعي، وشعبية البراءة الزائفة في تفسير ما حدث في إطار المقولات الصهيونية والأدب تعبيرات وأحاسيس ذاتية وانعكاسات للمجتمع على نفس الأديب الذي يتكلم لفته وحباً ظروفه. ومعاناة الأديب جزء من معاناة الجمهور ولكن الإساءات الإنسانية مقبولة في الانتاجات الأدبية الصهيونية فهي إما إسقاطات مرضية تستهزئ بقيم الغير أو انصواء واجترار لتوليد معينة. إنها أكثر تجسيدا لمعاناة المستوطن.

استقروا في هذا المكان لم ينتجوا في فلسطين أي شيء نه أهمية بالرغم من هدمية البلاد لأديانهم. وفي كتاب قواعد اللغة العبرية المقرر على مناهج الثانوية نقرأ عن العرب في صفحة 277: العرب سلبوا. وهتلوا.

ونقرأ عن اليهود في صفحة 117: اليهود جلبوا الحضارة إلى الشرق الأوسط وفي مقدمة كتاب دراسي أعده الدكتور «سفروني» ورد التأكيد على أن «شعب إسرائيل هو صفة الشعوب كلها. وأكثر العناصر افتخاراً لأنه تكون عن طريق انتقاء الأفضل» وجاء في وصف العرب وتحديد طابعهم «هذا العنصر الغريب في البلاد يطهنته والتدخيل على رسالتها ونطاعتها يعيش الآن فوق ترابها ويستغل خيراتها. ولابد من أن نحاربه كما حاربنا من سبقه من الغزاة والأجانب الذين استولوا على البلاد في العهود الغابرة ونهبوا ثرواتها» وبالتالي فهؤلاء العرب غرباء في العرف الصهيوني يجب طردهم أو قتلهم. وهذه حقيقة الفكرة الصهيونية.

في ملحق صحيفة «هارتس» ينشر شاعر صهيوني يدعى «أكور» بتاريخ

1982/7/2 قصيدة له بعنوان «لو كنت قائداً لجيشنا الأسطورية.. لو كنت قائداً لمنطقة بيروت المحاصرة والمختنقة نصرخت في وجه كل أولئك الذين يطالبون بإعادة المياه ويصرخون ويتألمون ويطلبون إعادة الدواء والطعام إلى المدينة المحاصرة».

ولا يتوقف «أكور» عند حد الصراع فهو ذومزاج مختلف وعمله يتطلب أكثر من ذلك. لفته يظن بأكثر من وسيلة «لو كنت قائداً لجيشنا العظيم لزرعت الموت والدمار في كل المزرع والشوارع في كل المساجد والكنائس».

فالفلسطينيون في نظره شعب رائد أو قائم عن حاجة البشرية لذا يجب إغاؤه فلا وجود له في وطنه وهذا يذكر بمقولات منظرية الصهاينة هرتزل وجايوتسكي كتجسيد قانون لأحد أبرز أشكال الصهيونية وهو العنصرية التي تقتضي فلسفتها القضاء على حقوق ووجود الأمم الأخرى. والشاعر هنا يتعمص شخصية «يوشع» في تدميره لأريحا فيتحيل الدماء نسول أمامه فيسعدته المنظر لذا يطلب المزيد ليس للمحاربين بل لجميع أفراد الشعب. وهنا يمكن القول أن الأمثلة التي أوردناها تثبت بدون شك نظرة الأدب الصهيوني العنصري ضد العرب بما يتنافى مع الدور الإنساني الذي يستحق الحصول

الحقد والرعب. تكن عدم توضيح الشاعر من المعتدي عليه يجعل حزنه موضعياً دون أن يشير إلى الطرف صاحب المسؤولية في ذلك ويحاول الشاعر الإيهامي أن يلبس جلد حمل ويبرر براءته وأنه ضد الحرب والقتل. ولكن ليس كل القتل فهو يحزن لقتل الصهاينة فقط لأنه يزور التاريخ بإبراز أن أرض الشعب الفلسطيني له.

وضع الأقلية العربية الصعب

في دراسة أجراها أحد أسانذة الاجتماع في فلسطين المحتلة على طلاب المدارس الابتدائية خرج بالنتيجة التي تقول أن 60% من 1066 طالباً قائلهم في مقابلات مفتوحة وتراوح أعمارهم بين 9 - 14 سنة أيدوا الإفتاء الكلي للعرب المدنيين المقيمين في إسرائيل في حالة أي صراع مسلح مع الدول العربية وفي مثل هذا الجو النفسي يمكننا أن نتصور الجو الإرهابي الخانق الذي تعيش فيه الأقلية العربية في فلسطين المحتلة. والرغبة في الإفتاء التام ليس مجرد تفكير صيغاتي بل عقيدة. وليس أدل على ذلك من أن الصهاينة يعتبرون مرتكب مجزرة الحرم الإبراهيمي من الشهداء والقديسين.

وتقوم حرب أكتوبر ويحرك الأدياء الصهاينة لإبراز براءة الذئب الصهيوني ويصبح السلام مخرجاً. ولكن أي سلام هو المرغوب. الشاعر الصهيونية «حفاة هر كابي» تبين ذلك فتقول:

نذا... فإني أقول

الحزن هو مجرد حزن والألم ليس سوى الألم حتى الجبال يمكن تحريكها رغم قدرتها على الرفض نريد الشاعر أن تحرك الجبال العربية وتزحزحها لتتسنى لها حياة هادئة مع رجليها على حساب الآخرين.

في قصيدة تحمل عنوان «أغاني أرض صهيون» كتبها الشاعر يهودا عميحي عام 1974 يمزج الشاعر بين الآلام الصهيونية المدعاة وضرورة إنهاء هذه الآلام عن طريق الاستيلاء على الأرض العربية «والاحتفاظ بأرض فلسطين عام 1948» مبرراً مقولة أحد المستوطنين الأوائل «نروميلدور» بشكل إيحائي ثيبين ضرورة التمسك بذلك. وهذه القصيدة تتميز بتركيب الرؤية والبناء الشعري فهي تقدم المقولات الصهيونية في حانة التشايب والتناق الهندسي الداخلي. وهذه هي حالة المقولات في نسقها الفلسفي:

لعل الكلمات الأخيرة التي لفظها «نروميلدور»

ما أحلى الموت في سبيل أرضنا بنو الوطن الجديد

مثل نخل الحقل في مجموعات مجنونة

حتى ولو لم تكن هذه كلماته

أو أنه قالها ثم اختفت

نظل مكانها محفوراً كالكهف

فاق الملاط والأحجار صلاية

هذا هو وطني

الشاعر هنا يجتر قول «هرتزل» عن الدولة المرتجاة «اللائتية» على قاعدة التمسك بالأرض حيث يدعى أن اليهود هم الذين عمروها فهي صحراء بدونهم ومقفرة بدون جهودهم وهنا نريد غير مباشر مقولة «شعب بلا أرض لأرض بلا شعب» بكل ما فيها من كريف وتضليل وخداع وتأمير.

الوطن المتعين الذي يراه الصهاينة والذي اكتسب ملاط بنائه صلاية ونماسكاً يفوهان صلاية ونماسك الأحجار «مقولة الأرض التاريخية الممزوجة بالوجود اليهودي الكلي» حيث يمارس اليهودي حياته العادية على حساب الآخرين بالاستيلاء حتى الموت لأن كور هذه الأرض فلسطين، هليست من المعادن الطبيعية بل من عظام الموتى اليهود الذين قاتلوا في سبيلها ليحققوا لها الوصول إلى عصر «المسحاء». «عصر الخلاص اليهودي المطلق» الأمر الذي يعني أن الطرف الآخر في المواجهة ليس سوى ذلك العدو اللاسامي الذي يحاول أن يقطع طريق شعب في التزاوج مع أرضه. وهذه ليست سوى نفس الرؤية التي تنص بها المقولات الصهيونية.

بعد حرب 1967 ومروراً حتى الانتفاضة الفلسطينية 1987 انبثقت عن الأدب الصهيوني نطلمات وتوجهات متباينة حسب الظروف والمتغيرات. فهي تدعو للاغتصاب والقتل بعد كل اتصال صهيوني وتدعو إلى السلام المزيف مغلفة ببراءة غير حقيقية تعتمد على الإحباط الذي يعانيه المستوطنون الصهاينة فيجترون آلامهم دون أن يتخلوا تماماً عن المقولات الصهيونية. ويمكننا رصد حركة تأثر المقولات وملاحظة الحانة النفسية الصهيونية المنعكسة على الأدب بعد الانطلاق للانتفاضة المخففة في فلسطين والتي يسفح بها الأطفال بقوة انعطسة الصهيونية. فما هي الدلائل تؤكد مدى تأثير الثورات التضائية للأجيال الفلسطينية الجديدة مما خلق في الجانب الصهيوني انعكاسه حقيقة. فالجحارة تزداد معها الآلام. فنذكر بالآلام

القديمة وقد رسمت اشاعرة «أنا نجريون» مسيرة هذه الأثرة النفسية في قصيدة لها بعنوان «البداية تقول فيها»:

فرضت أشعار نحيب متعددة

حتى لم يبق لي ما أقوله

إذن هنا حانة نفسية متأثرة. فرف من القتل المتبادل. وقتل الأطفال. تكن دون التخلي عن جوهر الصهيونية. ونرى هذا بوضوح في قصيدة الشاعر الصهيونية «داليا راينوفتش». في قصيدة لها بعنوان «حجارة» تقول فيها:

بين اعتقال واعتقال

وربما ضربة هراوة

وربما رأس مجروح ويد مكسورة

كل شيء جائز بالنسبة لهم

أيها الأولاد. الأولاد. الأولاد

عودوا إلى البيت أيها الأولاد

كيف ستعيشون بلا استراحة

ماذا نريد الشاعر أن تقول؟ هل هي تتألم هنا من أجل الأطفال الفلسطينيين؟ يبدو أن الأمر كذلك إذا نظرنا إلى القصيدة نظرة سطحية تكفنا إذا ما تعمقنا في بنيانها الداخلي نجد أنها تستيق الأحداث فترثي وجود الكيان برمته. فلقد أصبحت الانتفاضة هاجساً مرعباً لكل الأجنحة الصهيونية بل «دفعت طبول القبيلة في نفوس أولئك الذين كانوا يقولون عن أنفسهم أنهم تقدميون ومتحورون».

إذن فالشاعر ندعو الأطفال ليستكفوا حتى لا يصابوا بالجراح. وتلثقي أجسامهم الغضة مع انهرارات الغليظة لجنود الاحتلال. وكان أجبر بالشاعر أن تدعو إلى انسحاب هؤلاء الجنود بل وإلى تقويض المجتمع الصهيوني إذا كانت تدعي التقدمية والإنسانية وهذا لا يمكن أن يكون إلا إذا فرغ اليهودي من صهيونته فهل يحدث هذا؟ بالطبع لا يمكن لأن الصهيونية مرتبط بانفراة والأفكار ائلمودية التي هي أساسها وبالتالي فإن الشاعر تعالج إذن ظاهرة مجتزأة من سياقها الاجتماعي والسياسي وكان الأمر يتعلق بلعبة خطيرة يمارسها الأطفال على حساب العودة إلى البيت والاستراحة ولكن أي بيت؟ أية استراحة؟

قصة الأسير

لا شك أن قصة الأسير من أشهر قصص البراءة الزائفة «ليزهار سمونسكي» تتحدث عن راع عربي يدعى «حسن أحمد» هذه القصة

يأتي الجندي إلى أحد المناور في تلك المنطقة فيجد عربياً مسلحاً ولكن هذا العربي سرعان ما يلقي بنهيقته، ويبدأ بالتوسل إلى الجندي الإسرائيلي ويصل به الأمر إلى تقبيل قدميه كي لا يقتله، وأخذ يزعم في توسله أنه يحب اليهود ويستمر القصة «وعندما كنا جالسين نهض إبراهيم فجأة وأخذ يركض ولكنه اصطدم بالشجرة وسقط وأمسكت بالعمودى «البنديفة» لكي أفعل شيئاً بهذا العربي، وفجأة رأيت لفتى سامة».

رغم أن الكاتب هنا يود أن يلمح بأن هذا العربي قد لا يكون جيداً فقد يكون نافعاً، إذ أنه حاول إنقاذ يهودي من الأفعى، إلا أنه «الكاتب» لم يستطع أن يهضم ذلك في عقله الباطن فأظهر هويته وعنصريته وكان هذا العربي شيء مهمل كأى جماد مثلاً «وأمسكت بالعمودى لأفعل شيئاً ما بهذا العربي» أي رغم الموقف الذي يبدو إنسانياً في هذه القصة إلا أن الكاتب لم يتحرر من نزعة سادية نحو العرب كأن يهوى الأسير العربي نحو قدمي الجندي يقبلهما، ويعلق أحد الكتاب على هذه القصة فيقول «أنه من جهة واحدة يصعب على الكاتب أن يعامل الأسير معاملة إنسان يبدو له أن هذا الإنسان بدون صفات إنسانية أنه مجرد حيوان».

وهكذا تقتضج البراءة الصهيونية والأحزان الموضوعية لبعض الكتاب لكن صهيونيتهم تدفعهم في النهاية للانتصار لثرييتهم القومية وخطرتهم ضد العرب فهم إنسانيون مع اليهود فقط، أما العرب الجهلة فلا داعي لذلك.

كتبت الرواية الإنجليزية ماريا إدجورث عام 1817 رواية بعنوان «هارنجتون» قدمت فيها شخصية يهودية تتمتع بصفات طيبة، إلا أن الكاتب الصهيوني «بنامين دكرائيلي» يرد عليها بروايته «دافيد ألوري» عام 1833 باعطاء بطله الصفات التي امتلأت بها الصهيونية: العنف، المنصرية، العظمة والإيمان برب الجنود بهدف إيقاظ الشعور القومي الحربي لدى اليهود، كي يتذكروا ذلك الرب المحارب الذي كان يقاتل معهم في حروبهم ومجازرتهم في فلسطين، إن إعادة التذكير «برب الجنود» من شأنه أن يثير تلك الفتنة الحارية التي لم تعرف في حياتها الاستقرار، إلا من خلال الحرب ضد الشعوب أو من خلال الخضوع والسبي، وهذا ما لاحظناه في تاريخ بني إسرائيل واليهود ومنهم المهوورين الذين نبينا هذه العقائد ليكونوا محاربين وليكون

في نفسه فيرسل الأسير العربي إلى حقيقه وهو ما ينسحب على معظم أعمال سمونسكي فصي قصته «خربة خزعة» التي يتحدث فيها عن قرية عربية لحتلها فرقة من الجنود الإسرائيليين عام 1948 في هذه القصة يدور حوار بين الكاتب ومجموعة من الأفراد اللذين يؤمنون بآرائه من جهة ومجموعة أخرى من الجنود ممن يؤيدون الحرب والاحتلال والطرده والقتل، من جهة أخرى ومن ثانياً القصة يصور الكاتب مختلف الآراء تجاه العرب لدى فئات متعددة من الإسرائيليين يقول «سمونسكي»:

«وشاهدنا امرأة عربية مع بعض رفيقاتها وكانت تمسك بإحدى يديها وتبدأ في السابعة من عمره، هذه الفرقة الإنسانية ينسفها سمونسكي تماماً عندما يكرر في ثاياتها الإشارة المستمرة إلى ما حل باليهود في العهد النازي ويدعى أنه خجل أمام المرأة العربية «لقد شعرت بالخجل أمامها وأشحت بنظري عنها ولقد رأينا فيها امرأة نبوة، عبرت تقاطيع وجهها عن صبر واحتمال أنها مستعدة لتحمل المشاق، وتبلى أن تنهار أمامنا على الرغم مما حل بها ولقد كسنا ما يعتدل في نفس طفلها أن تقاطيع وجهه تدل على ما سيكون في المستقبل، انطلق الضعيف الذي لا يستطيع غير التكاء سيكون أفعى سامة».

الصفات الإنسانية زائفة

عجيب أمر سمونسكي الذي يدعى الإنسانية أنه لا يريد الطفل الذي سيصبح رجلاً أن يقاتل اللذين انتزعوا أرضه، ويواصل سمونسكي في قصته تقول «وبعد قليل تحركت السيارة الثالثة، أي جمود سيطر علينا وأية لا مبالاة كأننا لم نكن لاجئين أبدأ وكأننا مهاجرون فقط لكن ما هو المخرج؟» سمونسكي هنا يدعى أنه ضد التهجير وطرده الفلسطينيين لكنه لا يقدم على عمل يمنع ذلك سوى أن يذهب إلى النازحين ويقول لهم عودوا إلى بيوتكم ولكنه لم يفعل هذا إذن ما الفائدة من سرد هذه الأفكار وما الفائدة وفوقه مكتوف اليدين، إنها البراءة التي تظهر ريفها إذ أنه لا يختلف مع معارضيه ولعله شاء أم أبى، شريكهم في عملية التهجير في قصة «على حد رصاصه بقلم» يشحاق أوربارز نجد فكرة مشابهة للفكرة التي أوردها سمونسكي في «الأسيرة» غير أن أحداث القصة كتبت بعد حرب سيناء عام 1956، وهي كذلك تدور حول حياة جندي عمل في قطاع غزة وفي سياق هذه القصة

أسرته فرقة عسكرية صهيونية بينما كان يجلس تحت شجرة متقيماً ظلها في يوم صيف هانظ ويرقب قطع أغصانه باطمئنان ويوضح الكتاب كيف كانت المعاملة سيئة «شتم، إهانات، ضرب، سخرية» وتوضح القصة الصراع النفسي عند الجندي الذي طلب منه نقل الأسير إلى معسكر قريب، هذا الصراع المتناوج بين الواجب والإنسانية الجندي يخاطب نفسه في حوار داخلي: «يجب أن توفد السيارة وتطلق سراح هذا الأسير، وهكذا ستكون النهاية نهاية مختلفة، لكنه يصحوا إلى نفسه ويتساءل: «كيف أستطيع ليس الأمر في يدي.. لا.. لا.. هذا غير صحيح لست صاحب الأمر أنا مجرد رجل يتخذ الأوامر وليس على ذنب فيها أصابعه».

«سمونسكي» في هذه القصة يريد أن يضرب عصافيرين بحجر يغذي القارئ بالقيم الإنسانية للدعاية الصهيونية والتمسك بالواجبات العسكرية في وقت واحد وإن كان في نهاية الأمر قد رجح اندفاع العسكري على الروح الإنسانية، من جانب آخر نجد أن سمونسكي الذي يدعى الإنسانية لم يستطع أن ينزع من نفسه صفة التعالي التي أصبحت طابعاً عاماً في الأدب العبري فاختار للقصة بطلاً سادجاً «عربي طبعاً» الأمر الذي يظهر كثيراً في الأدب العبري.

عن هذه القصة يقول غسان كنفاني «إنها محاولة لتصوير ما تردده وسائل الإعلام عن البطولات اليهودية الخارفة، إن البطل العربي في القصة ما زال يختار بعناية ودقة يهودي دوره في الموراييك الصهيوني إنه تقريباً، يهلول «سادج» فتنة حرب وهو خارجها تماماً ويكلمة أخرى إنه العربي غير القادر على مواجهة خصمه، أما الدكتور «حياة جاسم» فتقول عنها: «لم يكن هناك شر في العالم يحتر من شرور آتية».

ويشكل عام فإن سمونسكي يوجه النقد لأصحاب الادعاءات الصهيونية ولكن هذا التجاوب مع العقلانية لا يغير صورة العربي عنده فهو عدو لا يزال جباناً وأخرق أمام شجاعة الصهيوني، ويوسع جندي صهيوني واحد أن يعبك بمجموعة من الجنود العرب ويسخر منهم والأسير العربي هنا يستدر عطف الكاتب لسداجته لا لعدالة قضيته، إن تجاوبه مع الشخصية العربية تجاوب ظاهري وسليبي ولا يخرج عن دائرة الولاء للصهيونية، سمونسكي يعاني صراعاً مريراً لإطلاق سراح الأسير العربي ولكن ولاءه للصهيونية، يتغلب على نداء العدالة

انه الحرب ووب الجنود متناسياً مع تطلعاتهم الحربية والعسكرية إن هذا التعلق المنسي لايد أن يثير اليهود ويستثيرهم للقفز مرة أخرى وانتحز للعوان. إذن فالاغتصاب والقهر والاضطهاد تشكل جوهر الفكر الصهيوني ومنطلقاته الأساسية هاندثاب» سادة الأرض لا الإنسانون المتسامحون. ولا غرو في ذلك فسلسلة تاريخهم تروي تعطشهم للدواء حتى إذا لم يجدوا من يقتلونه أسقطوا حقدهم على أنفسهم إلى درجة وصلوا بها إلى قتل أنبيائهم. في ريادة نها منطقة الجليل تتوقف «جويدا متيرة فجأة، وتترجل من سيرتها أمام شاخصة شير إلى اسم فزية عربية. كتب عليها الاسم بالعبرية والعربية فتأمر مرافقها بحزم بطمس الاسم المكتوب بالعربية وإبقاء الكتابة العبرية قائلة: «لا مكان للعرب أو العربية في دولة اليهود» وهذا يوضح أن كل ما هو عربي مكروه عند اليهود. أو غريب غير مفهوم. وإسرائيل محاطة بدائرة كبيرة من الظلام وهذه الدائرة الخارجية هم العرب بلا ريب وهي تحارب الدائرة الداخلية المشعة بانور أي إسرائيل بمعنى أن إسرائيل هي الممثل للحضارة في الشرق العربي، وما العرب إلا أعداء الحضارة الإنسانية وهكذا كان النفاذ إلى أعماق افرد الصهيوني. وكان الأدب الوسيلة الممكنة لافتحام نفوس اليهود والسيطرة على غرائزهم العدوانية. فالأدب الصهيوني «حانوخ برطوف» يرى أن «الوجود الصهيوني لكي يستطيع البقاء توجب عليه القتل». وقد لخص الكاتب الصهيوني «موشيه شامير» أهداف الأدب الصهيوني في المرحلة السابقة. فكان البطل فيه عاملاً ضد الظلم التاريخي عبر صور لا تخلو من الغزل وها هو الشاعر «شمعون هالكن» يناجي هذا البطل وأمثاله فيقول:

هلا كتمت كالكدمات تحدياً

يا حراس المزامير المقدسة

ولیکن بعدها ما يكون

أنتم يا أحرار الجيتو تخلصون الأغيار

وراءكم في المحيطات

ومهما تريدون يكون

تتعلمون منذ الصغر

القطاف من الأُمم وليكن ما يكون...

فهذا طريقنا ليس إلا...

البطل في الأدب الإسرائيلي

يأتي دور البطل الصهيوني في رفض الاندماج

الذي لا يرضي التركيب العضوي للبنية الصهيونية والعقل الصهيوني المتمزمت. ولقد وضع «هس» ذلك حين قال: «وقد يصبح لليهودي مواطناً في بلد يأخذ جنسيته، لكنه لن يقطع الأغيار أبداً بانفصائه عن هوميته» وهذه كانت وظيفة الأدب: زرع بذور الأفكار والرغبات الجديدة التي بدأت تأخذ هاعليتها بالعداء للألمان. وهنا يصبح الأدب الصهيوني دون رسالة تخدم البشرية. بل هو منظومة من الانتاجات يمكن إدراجها تحت اسم «الأدب العنصري» الذي يحمل بين طياته الازدراء للأخريين والدعوة إلى العنف والاغتصاب واحتقار الشعوب صراحةً. وينضح هذا العداء للشعوب في قصيدة نشرتها صحيفة «دافار»:

ليل الألمان طويل ونور عمرهم ضئيل

فتحن خائقو ألمانيا بيد حديدية فتية

ونحن فاندرون على صنع نعشها بلا اعتراض

لرض ألمانيا طوع يدنا وروحها ترعد

بعد الجبروت كأس ستجرعه مرراً

وهنا تظهر صورة البطل الصهيوني بقدر ما لديه من رغبة في الانتقام. فهو عادة مجازف وخارق لا يعرف الشفقة ولا يملك حساً أخلاقياً أو إنسانياً بل صوراً وكواييس سيطر على فواه العقلية ناتجة عما سمع به من مجازر لحقت باليهودي وتدفعه لاتخاذ الموقف ذاته ضد العرب إلا أن هذه الرؤيا وهذا المنطق يحتم على الكاتب تبرير التزام أبطاله لهذه الأخلاقية وهو الذي يدعي أنه عانى أهوال المعتقلات والإبادة مما يدفعه للوقوع في التناقضات. لذا يصبح هذا البطل على رأي «بيانيك»:

لا يقيم صدقات قرائه الأُمم

وانقلب يعضر العواصف

والعاصفة دم.

هذا القلب الصهيوني هو الذي انتزع شعر العربية الفلسطينية «خديجة» وهو الذي سحق السجناء في «كفارونا» وقام بالعديد من المذابح. ويسحق الثبوت كل يوم على قاعدة أن إسرائيل «هي لرض نساء». والعرب الذين يعيشون فيها إذا ضايقونا نظردهم. وتورجعنا إلى ما كتب «دايان» عام 1967 ترى أشكال الأدب الصهيوني كماركز على إبراز الشخصية الإسرائيلية المحاربة وكأنها «السويرمان» الذي لا يخشى ولا يؤسر لا يهرب. وقد تراود اشاعر بعض الأفكار هنا أو هناك وليكن بطله دائماً يحب القتل. فهذا هو بوضوح ذلك بقوله:

أرى العيون الميتة الصامتة

أرى حكمة الدولة

حكمة الحرب في أفواه المجانين

الحساب سنجره فيما بعد

أما الآن فأنا الثقاتل

قد يعتقد قارئ هذا النص أن الشاعر يحث على القتل ويدعو لمحاكاة الطغمة العسكرية المحركة لسياسة الصهيونية ولكن يتناسى أنه شارك في القتل. وكان يستطيع أن يرفض المشاركة برفض قتل الأبرياء ولكن عنصريته أبت عليه ذلك.

«مناحيم بيجين» كان طموحاً لتثبيت قيادته عبر مباشرته مذبحة دير ياسين فتفاخر بقتل 245 رجلاً وامرأة وطفلاً في هذه المذبحة. فأفكار هرنزل ما زالت حية في فلسطين المحتلة. فالقتل طهارة عند اليهودي وهذه «نعمة شيمر» توضح ذلك:

لو أنهم تلاميذ مجتهدون

لكانوا استخدموا ائديابة من مسافة فريية

ودمروا الثبوت والشوارع ولم يتركوا لحداً

ويهذا يكونون قد حلفظوا على طهارة السلاح

وإذا لم يكن القتل فاحتجاز الضحية في فريته أو منطقتة ومنعه من مغارنتها لتقيام بأي عمل كان. لفترة غير محددة وقد كثر بصورة خاصة استعمال هذه الثبوت ضد مواطنين عرب نهم ارتباط بمنظمات سياسية أو نهم نشاط اجتماعي أو ثقافي لا يرضى عنه الحكم العسكري.

من المحزن والمأساوي أن نحاول فهم المسألة اليهودية والصهيونية وإسرائيل في الأدب خارج سياق التاريخ العام وبمعزل عن النظام العالمي. فالصهيونية تستمد خصائصها من خصائص النظام انساني في العصر الراهن وبياناتي فإن فضع خصائص هذا النظام فضع لخصائص الصهيونية. وعندما نتصدى لبعض المقولات الملققة والخاطئة التي فرضتها القوة العاشمة وأنجنتها الأوهام والأخطاء فإن ذلك يعني حكماً انصدي للمقولات الصهيونية.

لم يرث اليهود العهد القديم فقط. بل أيضاً تاريخياً طويلاً من الاشعور الجمعي. بكل محتوياته ومكوناته وعقده النفسية «الشعور بالذنب». وعقدة أوديب. اشعور بالذونية والنعالي... إلخ. وفلسفتهم وكتيبهم رلخرة بالأقوال التي تدل على تلك الحالات. في اثتورة يمكن الاطلاع على مئات الكلمات مثل: السيطرة. القتل. النعالي. اشادا. القدر. النجس. وكلها كلمات معروفة في العبادات النفسية ويرى

المسيحيون أن الشعور بالذنب عند اليهود ناتج عن الجريمة التي ارتكبوها بحق المسيح بينما يرى «فرويد» أن السبب وراء ذلك كان قتلهم موسى. فالقتل غير المبرر وغير المتسامي يحد ذاته بشكل سبباً سواء أكان المقتول المسيح أم موسى أم الشعوب. أما الخلود فتبلورت فكرته عند اليهود نتيجة الأحداث الصعبة التي رَجوا أنفسهم في أُنونها وهام بها اليهودي تَفادياً لتلحل المحتمل في المجتمعات. من هنا أصيب اليهودي بعقد نفسية بالغة حيث السقوط الفجائي من الشعور بالعظمة إلى الدونية. فعلى عاتقهم تقع مسؤولية إنقاذ البشرية إلى جانب اعتبار «الفوييم» حيوانات في خدمة «شعب الله المختار». وهذه العقدة اللاشعورية تستحث تَكَرراً المشاهد عبر التمساح وهذا ما تتبناه الصهيونية السياسية وهيلها الصهيونية الأدبية لإعادة تربية الأجيال وفق السلوكية المرضية هذه والمنطلقت التثاقفية بقية التي لا تخضع للمنطق العلمي. ويكثف الأدب مقتصرأ على طرح هذه الأفكار. فهي قصيدة نشرتها «معاريف» بتاريخ 1978/5/10 نقرأ الأتي:

اعتمر الخوذة استعداداً لمسيرة الدم
جائلاً بعينين إلى انثار الحمقى
امشاق السيف جزء من آدميته
لرعدة الفرح واحالة الحرب إلى سعادة
إن الصهيونية سبقت «التينشوية» بعدة قرون
بفكرة الرجل اليهودي المتفوق.

الرجل النقي الذي هو غاية في حد ذاته والذي خلق العالم من أجله. إذن فالبطل الصهيوني هو المحارب الذي يعتمر الخوذة ويمتشق السيف والتدبابة ليجعل العالم من أجله، ولقد وضع «بيجن» أن عادة حمل السيف إنما هي عادة يهودية قديمة وليست ميزة صهيونية. وهذا الأمر يوضح أن لتاريخ الصهيوني تاريخ عسكري ملقق استخدمت في تلقيه براعة شيطانية لا يمكن إنكارها. فاليهود أكثر حشداً، والمفاجأة دائماً معهم رغم أن في التاريخ اليهودي لم توجد في أي حرب ولا في أي معركة ضمن هذه الحروب «مواجهته بالمعنى الصحيح على هذه القاعدة سارت الصهيونية الأدبية فأصبحت القصائد التي تتضمن مفهوماً سياسياً في الشعر الصهيوني باستثناء ردة الفعل النفسية لا تخرج عن الأطر العامة التي حددتها المسيرة الصهيونية. فكلمها سواء الصريحة منها أو الرمزية لا تتخلى عن الهدف الاستراتيجي. فكان يجب على البطل

تنفيذ هذه الثوابت التي يطرحها «ديدي مئوس» عندما جسد ميادئ «كامب ديفيد» في قصيدة «الفبوية الساحرة»:

كذلك نذكر الأساطير
مجرى أحداث وأمر. ومولاف
دمر بيت الملكة قبل الإذن
رغم اليأس واليكاء
بكامب ديفيد تكمن الحياة
هناك «إذا لم تحكّم الرغبة»
فسيفرض السلاح نفسه

دونية العربي مقابل الصهيوني

«يهودا بورلا» قاص صهيوني يظهر البطل في قصته «روح في شبيه» مخلصاً تقضيته يقدم كل شيء من أجلها. يتخلى عن المكسب والمال في سبيل إنجاح مهمته «فلقد قبل جدعون المهمة المناطة به. شراء الأسلحة. دون نقاش. وقام بتفويضها على أحسن وجه وحكمة. بينما يظهر لنا العربي غيباً يتراجع بسهولة أمام المغريات المادية. ومع أنه يعرف كما ذكر «بورلا» في قصته أن السلاح سيصل إلى الهاجاناة. بورلا هنا يتفق مع «سموننسكي» في قصته «في ظل التيارات» الذي أورد على نسان إحدى العائلات اليهودية التي تعيش في بيروت «إنك تستطيع شراء العرب بالمال. لأن المال عندهم هو كل شيء». وهنا نزيور حقيقي للتاريخ. ففرق كبير بين العربي في مروءته وبين اليهودي في جبنه وشحه القاتل. وليس غريباً ما أوضحته الآداب العالمية من هذا الأمر وأبرزها «قصيدة ناظر التينشوية»:

مفهوم البطولة عند الصهاينة

والبطولة عند الصهاينة قاعدة عريضة تمتد لتصل للأطفال أيضاً. فلقد برزت لهجة «السوبر طفل» الإسرائيلي. بكل صلفها ووفاحتها وعنفها واستخفافها في أعمال الكتاب الصهاينة «كرميلي، وعوديد، ووان سترنغ، وستمبر. فكل أعمال هؤلاء تمجد بطل اليهود كبطل أسطوري. حتى كلاب اليهود أفضل من كلاب العرب. فالكلية «غريته» توصل الثورة لمعسكر الجيش بل وتبلغ عن نشاط القوات السورية أي أن اليهودي يرى في الكلاب أفضلية على العرب ويرى هؤلاء الكتاب أن اليهود عندما يبدأون بإطلاق النار يصاب الجنود العرب بالهلع ويركتون إلى الفرار».

خاتمة
وهكذا يتضح لنا أن الاستيطان والاستيلاء على الأرض منذ البدايات الأولى للهجرة الصهيونية واكتنفتها حركة أدبية وفكرية نشطة تدعو لامتلاك الأرض محاولة تزوير التاريخ بأن هذه الأرض بدون سكان. وأن الصهاينة اترواد هم الذين عمروها بعد أن كانت مستنقعات وصحاري مليئة بالحشرات والأمراض. وما رواية شموئيل عجنون «بالأمس الأول» إلا صورة واضحة للصهيونية الأدبية المبكرة.

الاستيطان هذا والمفهوم الصهيوني لا حدود له. فهو قديم جديد ومتجدد تحكمه عوامل القوة واستغلال الظروف العالمية بما في ذلك الانكفاء على حليف قوي يمكن أيضاً استبداله في الوقت المناسب. وفي هذا المجال ها هي الصهيونية تعمل كل يوم على نهضة الظروف الملائمة لابتلاع المزيد من الأرض عن طريق العدوان المتكرر هنا وهناك. وبمساندة الإمبريالية الأمريكية المعادية للأقطار العربية تمشياً مع السياسة الثابتة التي تقوم على فرض الأمر الواقع. وقت شكلت هذه الحملة الاستيطانية ذروة خطيرة لهذه السياسة الدونية أو قرارات الأمم المتحدة التي تدين سياسة ضم الأراضي بالقوة.

على هذه القاعدة من الوعي الأيديولوجي السليبي. وظفت الصهيونية الأدب والفن لتتميز سياستها الاستيطانية ولخلق الجيل الإسرائيلي المشوه فكراً بزور الأفكار السامة والهدامة في عقله على أساس أن هذه الأرض للأسرائيليين فقط. ومن عليها من سكان من غير الإسرائيليين غرباء ويقايا مستعمر قديم. بل نظرت الصهيونية الأدبية للشخصية العربية مبررة إياها في أدنى مراحل الانحطاط البشري الجسماني والسلوكي. وكان العرب من يقايا الحلقات المفقودة في كائنات علم التطور. فالعربي جاهل. سارق. جبان. سين. يشبه الخنزير في تناوله للطعام. دموي وهائل. وغريب الملايح شعره أخضر وأشعث يحب القتل والنساء ويفتصب الأطفال. ورجل هذه صفاته الأجر به أن يموت. هذه المفاهيم تزرعها الصهيونية في نفوس الأطفال كل يوم. وتحقق بها أفكارهم وعقولهم. وتشكل منهم بلورز الفعل العدواني القادم ضد العرب. بل وضد أنفسهم أيضاً.